

على هامش الفلسفة

طريقة الأخلاق أيضاً

للأستاذ محمد يوسف موسى

—

إذا كان استنتاج الأخلاق من الدين وربطها به حسب ما كان يراه رجال الدين المسيحيون منقوداً كما رأينا، فهل من الممكن استنتاجها من معين آخر؟ ذلك ما حاوله كبار فلاسفة ما وراء الطبيعة.

شغل كثير من الفلاسفة أنفسهم يبحثون ما وراء الطبيعة التي أهمها تترك القوة الوجودية لهذا الكون والتي إليها الأمر والذي هو مصدر الخير كله، ثم استنتاج الأخلاق منها، سواء منهم من تقدم بهم الزمن أمثال أرسطو وأفلاطون أو من تأخر بهم أمثال: ديكارت^(١)، لينتز^(٢)، شينينوزا^(٣)، مالبيرانش^(٤).

هذه الأخلاق المبنية على مباحث ما وراء الطبيعة لها حظها من السمو والجلالة يجعلها للخلقية الإنسانية معنى كبيراً نبيلاً إذ تربطها بالله الذي الحكيم. على رغم ما بين علماء ما وراء الطبيعة من اختلافات جوهرية في حل مشكلة العالم، زمام جميعاً متفقين على الاعتقاد بأن للمرء عقلاً نظرياً يصل من نفسه بلا حاجة لتجربة ولا شيء آخر إلى معرفة الحقيقة المطلقة أي إلى معرفة الله تعالى، ومن هذه المعرفة السالية الباشرة تصدر الأخلاق. فإله هو مصدر كل حقيقة موجودة، والكان الكمال ومبدأ الحياة الأخلاقية؛ فكرة الكمال هذه هي نقطة التحول مما وراء الطبيعة للأخلاق. كما أن نسب الكثرة هي موضوع الرياضيات، تكون نسبة الكمال موضوع الأخلاق والأساس الذي نبني عليه حكمنا على

(١) أحد فلاسفة القرنين وأعلام رجال ما وراء الطبيعة والمهندسة (١٥٩٦ - ١٦٥٠) اشتهر بمباحثه فيما وراء الطبيعة وبمذهبه في الشك الذي ابتدأ بانكار كل شيء وانتهى بإثبات وجود الله.

(٢) عالم وفيلسوف ألماني شهير (١٦٤٦ - ١٧١٦)

(٣) فيلسوف هولندي معروف (١٦٣٢ - ١٦٧٧)

(٤) أحد فلاسفة ما وراء الطبيعة القرنين (١٦٣٨ - ١٧١٥)

الأشياء والأعمال. الدابة كما يقول مالبيرانش أوفر حظاً من التقدير من الحجر لأنها أقرب منه لتكامل. والأمر على العكس بين الدابة والإنسان لأن نسبه من الكمال أوفى وأكبر من نسبها منه؛ فالذي يحترم مثلاً حصان عربية أكثر من سائقها يكون ضالاً في حكمه متشككاً سواء السبيل. كذلك من الواجب أن نلاحظ أنه يوجد في المرء نسب متفاوتة من الكمال بين مختلف أعضائه، وهذه النسب تتباعد تارة وتتقارب أخرى إلا أنها تتفاوت على كل حال؛ فالروح مثلاً أكمل من الجسم، والعقل أكمل الحواس من أجل هذا يجب أن يعيش المرء كإنسان لا كحيوان، وأن يكون في سلوكه حسب النظام الذي يوحى به إليه أكل ما وهبه الله وهو العقل، ومعرفة هذا النظام هو أصل الخليفة. يجب على المرء أن يحيا طبقاً لأكل كل عضو إنساني فيه وهو العقل الذي يؤلف بين الناس، بينما تفرقهم الشهوات والمواطف والمصالح الخاصة. بسلوك المرء هذا السبيل يصل للعادة. ليس القصد السعادة الخارجية التي مردها الحظ أو الثروة أو الجاه أو كل ذلك وأمثاله معاً، بل السعادة الداخلية والقبطة النفسية التي هي أسمى ما يطمح إليه إنسان والتي ينالها المرء من التخلق بالفضيلة والوصول للكمال بالقدر المستطاع.

بهذا ونحوه يؤكد فلاسفة ما وراء الطبيعة إمكان استنتاج الأخلاق من تلك الأبحاث. إلا أن هناك صعوبة لا يمكن تجاهلها تقف دون نزولنا على ما يريدون. أمامنا تاريخ الفلسفة يؤكد لنا بلا ريب أن الآراء في جميع مسائل ما وراء الطبيعة، والحلول التي عرضت لمشاكلها كانت جد مختلفة على نحو لم يعمد في الآراء الأخلاقية التي يرون استنتاجها منها وإبتناءها عليها. حقاً من الممكن أن تقرر بلا مغالاة تقارب النظريات الأخلاقية في المثل العليا الأخلاقية؛ هي تأمر بفضائل واحدة، بينما لا تجد مثال هذا القائل، ولا قريباً منه في حلول مشاكل ما وراء الطبيعة. من السهل أن نأخذ كثيراً من الآراء الأخلاقية عن سقراط، أو أفلاطون أو أرسطو، أو سينيوزا مثلاً دون أن نتقيد بشيء ما من آرائهم فيما وراء الطبيعة. ذلك معناه أن معين الأخلاق ليس فلسفة ما وراء الطبيعة، لهذا نرى أن هؤلاء الفلاسفة في حاجة شديدة لمهارة جدلية فائقة لربط البادئ الأخلاقية التي جاءتنا عن

فيها ، بل ربما كانت الحقيقة الآكد من سواها . لأنه كما يقول « ديكارت » : « من الممكن أن أشك في العالم الخارجي ولكن لا يمكن أن أشك في شي هذا . لا يمكن أن أشك في فكري . ليس من الممكن أن أشك في وجودي ككائن مفكر . إذن أنا أفكر فأنا موجود »

نم هذا الاستنتاج الكونتي يصلح حقيقة لإثارة النفوس المتشعبة بالمثل الأعلى الأخلاق ، إلا أنه لا يفرض نفسه منطقياً على كل النفوس والعقول . هذا امرؤ يعتقد الواجب ويؤمن به ، حيناً يفهم أنه صنعة العالم والإنسانية وأنه بدونها لا يكون شيئاً ، يجد من المنطق أن يرد الجميل وأن يحيا في سبيل الغير . وذلك الذي ليس عنده أية فكرة سابقة عن الواجب ، أية مخالفة للمنطق في قبوله كل مقوماته من المجتمع دون أن يرد له شيئاً ، حقيقة ليس من الأخلاق أن ينفق الرء في سبيل لذائذ الأنانية الأموال التي جمعت بطريق الذير ، والقوى المركزة فيه من الأسلاف السابقين . لكن هذا إن لم يكن من الأخلاق ليس من السهل وصفه بأنه لا يتفق مع الروح العلمية المنطقية والنتيجة العامة بمد ما تقدم كله أنه لا يمكن استنتاج أخلاق صالحة مقبولة من الجميع من الدين — على نحو ما كان يفهم رجال الديانة المسيحية — أو من فلسفة ما وراء الطبيعة أو من علم الاجتماع الذي يعتبر نهاية العلوم . إذن فلنترك مؤقتاً الطريقة الاستنتاجية ، ولنوجه البحث نحو الطريقة الثانية وهي الرجوع في الأخلاق إلى الحاسة الإلهامية ، وإلى اللقاء إن شاء الله

محمد يوسف مرسى
المدرس بكلية أصول الدين

في العدد رقم ٣٠٠ كلمة الحاسة الأخلاقية ، وصحتها : الحاسة الأخلاقية وكلمة رجاء الصواب ، وصحتها : رجاء الثواب

الأمراض التناسلية

للأمراض التناسلية تأثير واضح على الصحة العامة وعلى الحالة المعنوية لدى الأفراد وإعمالها يدعو لمضاعفات كثيرة سببة العلاج .

الدكتور حسني أحمد بشارع إبراهيم باشا رقم ٦٧ بمصر

يسالج هذه الأمراض بنجاح مضمون تلفون ٥٠٤١٤

الضمير الإنساني ، والتي أمدتها أمثال التقاليد العالمية الإنسانية بأرائهم في مسائل ما وراء الطبيعة . وإذا قلنا بحق إن ربط الأخلاق بما وراء الطبيعة ليس إلا سفسطة في الغالب من الحالات إذا كان لم يسلم استنتاج الأخلاق من فلسفة ما وراء الطبيعة ، كما لم يسلم القول بأخذها من الدين على النحو الذي أسلفنا ، فهل من الممكن استنتاجها من بعض العلوم ؟ هذا ما رآه « أوجست كونت »^(١) . إذ يبنى أخلاقه على العلم الذي تنتهي إليه العلوم ، وهو علم الاجتماع

علم الاجتماع يقرر أن الفرد ليس إلا أثر من آثار المجتمع والإنسانية . الإنسانية هي الموجود الأكبر الذي يستمد الفرد منه كل كيانه ومقوماته ، فهو يتقبل من المجتمع الماضي والحاضر كل ماله وكل ما هو . ما نأكل وما نلبس وما نتمتع به في مختلف مناحي الحياة ليس إلا نتيجة عمل الإنسانية الخالدة التي لا تفر عن العمل لحظة من اللحظات لخير المجتمع كله . أليس ما ننعم به اليوم من سيارات وطائرات وراديو ولاسلكي وكهرباء بعض أعمال شركائنا في الإنسانية الذين عانوا في سبيل ابتداعها أو كشفها كثير من الآلام وعملوا لأجلها مالا يستهان به من التضحيات ؟ ثم من الناحية العقلية والأدبية نجد اللغات والعلوم والآداب إراثاً اجتماعياً أمدتنا به الإنسانية على طول الأيام .

لهذه النظريات الاجتماعية يستنتج « كونت » هذه النتيجة الأخلاقية وهي : أن الفرد يجب أن يعيش لأجل العائلة والإنسانية ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون مبداء « الحياة لأجل الغير » . إذن تكون الأخلاقية أو الخلقية هي أن نمكن للإشارة على حساب الأثرة . بل يقول أحد من يرون هذا الرأي وهو الأستاذ « جوبلو Goblot » : « ليس الإحسان عطية يقطعها الرء من ماله ، بل هو تعويض واجب عليه دفعه »

حقاً هذا استنتاج جميل تعلق به الأئمة ويتفق مع أعلى التجارب الأخلاقية للإنسانية ، ولكن نقطة السير في هذه الأخلاق المبنية على هذه النظريات ليست من القوة والتسليم بحيث تفرض نفسها على العقل بطريقة جازمة . كون الفرد ليس إلا أثر من المجتمع محل نزاع قوى . الضمير النفسي الذي يكشفه الإنسان في نفسه حقيقة من الحقائق ، أل « أنا » حقيقة يقينية لا شك

(١) أحد الفلاسفة الفرنسيين الباحثين في الرياضيات ومؤسس الفلسفة الوصفية (١٧٩٨ - ١٨٥٣)